من الأدب الالماني

عروس الدب

للكاتب الألماني : فيرنر برجنجرين

ترجمة : محمود إبراهيم الدسوقي

فيرنر جنجرين شاعر المانى ، وكاتب أقاصيص ، وأساطير ، وقصص ، يريد أن يكشف فيها عن النظام الأبدى للعالم ، وهو عضو فى المجمع الالمانى للغة والشعر ، وحائز لجائزة ولهلم رابه • ولد فى سنة ١٨٩٣ فى ريجا على بحر البلطيق ، ودرس فى الجامعات الألمانية ، وحارب فى صفوف الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، واشتغل بالصحافة بعد ذلك • فلما كانت الحرب العالمية الثانية فقد وطنه ليتلانده ، ونزح الى التيرول ، ثم هاجر الى سويسره بعد الحرب • وهو يعيش الآن فى زوريخ • وقد رفعه تفوقه فى فن القص ، وحذقه للغة ، وعمقه الذهنى ، وانسانيته المتسمة بالتقوى ، فوق مستوى عصره ...

لماكان مايزال فى أبرشية تيليكولشن دببه ، كانت فتاة لامكان لها فى الوجود ـ كما كان الناس يقولون ـ تعيش بين القرويين • كانت أمهـا بلا زوج ، ثم ماتت وهى فى النفاس • وقيل ان أباها كان جنديا ، جنديا ما ، من السويديين أو الروس أو السكسونيين أوالبولنديين فعلم ذلك عند الله،اذ مر منهم كثيرون يجوسون خلال الديار ، وقد ترك القرويون الطفلة لمصيرها ، لان الوقت كان عصيبا ، وكانوا ذوى معسرة •لكن القسيس دعا اليه كبير القرية فعنفه ، وجرح ضميره المسيحى ، هذا الى عصا الركوب التى كانت ملقاة أمامه على مكتبه وهكذا بقيت الطفلة فى رعاية القرية ، ففى كل سنة تنتقل من ضيعة الى ضيعة غير التى كانت فيهـا من قبـل وقد آواها الموسرون أول من آووهـا ، لان الانسان فى أول عهده بالحياة ، لا يصلح لشىء سوى الأكـل • لـكنه حين يبلغ الرابعة يمكن أن يحتـاج اليه فى رعى الماشية ، اذا ما أبطله عائلوه عادة اللعب، والقرويون يفهمون ذلك •

كانت الفتاة تسمى ليزو•فلما بلغت السادسة من عمرها جاءت الى «يورى»

قصير الرجل ، وكانت زوجه تسمى « ماريت » قصيرة الرجل أسوة بزوجها، وان كانت بالذات مديدة الساقين تستطيع الجرى كما يجرى الذئب . هذا الى ما يراه زوجها من أن لها أيضا صوتا كعواء جراء الذئب . وكان هذا رأى ليزو أيضا بعد أن زايلتها عادة الخوف من ضرب هو أقسى مما يمكن أن يبقى لها هذه العادة . لكنها مع ذلك كانت تخشى ماريت قصيرة الرجل .

وكانت ليزو تقبع بين غاب المستنقع تحيك لماريت قصيرة الرجل ، بينما كانت أبقارها ترعى الكلأ . ولم يكن سهلا عليها أن تقسم وقتها ، لانها لا تدرك المفاهيم هنا بعد ، لكنها كانت تعيش خبراتها فحسب كما يعيشها الحيوان. فاذا مضت أطول مما يجب فى جنى التوت ، وحاكت أقل مما ينبغى ، ضربتها ماريت عندما يأتى المساء بمنكاش النار، واذا حاكت أطول مما يجب وأكلت من التوت أقل مما ينبغى بقيت جوعانة، لان قطعة الخبز التى كانت تتزود بها، لم تكن تكفى ، هذا الى أنه كان خبزا عجن بالتبن المخروط ولحاء الشجر المطحون وهو ما كان كبير القرية نفسه يأكل منه ولا يأكل سواه .

وفى يوم الاحد كان عليها أن تحرس البيت وترعى الاطفال ، بينما يتوجه قصير الرجل مع زوجه الى الكنيسة ، فربطت ليزو ذات مرة قدم أصغرهم برجل المائدة كى يعجز الغلام عن الحاق ضرر ، ثم جرت الى البحيرة لانها كانت سمعت أن الغرق فيها لا يستغرق وقتا طويلا ، وأن حور البحيرة يزودن الغرقى بخبز نقى مصنوع من الدقيق . لكنه كان فى البحيرة زورق مما يسير بالمجداف يجلس فيه كاتب سيد القرية المحترم يصطاد السمك . فنادى عليها بالالمانية أولا ثم باللغة الاستونية لانها لم تكن تفهم لغة سادتها ، وحذرها من التجاسر والنزول للاستحمام حتى لا تطفش السمك ، فعادت أدراجها الى البيت وفكت قيد الغلام واستلقت على الارض، وجعلت تعول وتنشب أصابعها وأسنانها فى فروة الخروف العتيقة التى اعتاد القرويون أن يلتحفوها فوق دكة الفرن.

كان هذا قيد فكرها وهى ترعى البقر ، وكانت تفكر أيضا فى أنها اختصت بالكثير من السوء مما لا يصيب سائر من عرفت من الناس . لكنها لم تكن فى العادة تفكر كما يفكر الناس ممن ألفوا منذ الصغر أن يتبادلوا الحديث غالبا عن كل ما يقع من أحداث ، فكان ينتظم تفكيرهم من ثم نظام مألوف ، أما هى فكانت تفكر على أسلوبها لان أحدا لم يخاطبها قط الا فى أن يصدر اليها أمرا أو يعنفها بكلمة ، ولانها كانت غالبا وحدها فى الغابة خارجا . وكان تفكيرها يدور أيضا حول أن شيئا كحوت سليمان قفز فى النهر ثم اختفى ثانية ثم عاد فقفز ثم اختفى من جديد . ثم انها أيضا لم تتسن لها خبرات تتجاوز رعى البقر والحياكة وتناول الخبز والتوت وتلقى الضربات . وهكذا لم تكن تختلف كثيرا عن أى حيوان . والحنين الى حال تأمن فيها من الاخطار كان كذلك مما يداخل الحيوان . غير أن ذلك الذى يميزها كانسانة خلقها الله عن الحيوانات ـ ذلك بالذات ـ لم يظهر عليها كما ينبغى ولم يتأكد فى وعيها . ومن ثم كانت تأنس الى الحيوانات أنساكبيرا من دون أن تتودد الى خروف أو بقرة بطبيعة الحال كما يفعل أطفال سادتها أحيانا ، ولم تكن

تخاف حيوانا ولو كان ذئبا كما كانت تخاف ماريت قصيرة الرجل .

وذات يوم بينما هي تحشو فمها على عجل بالتوت حرصا على وقتها أن يفوت، بدا لها كأن احدى البقرات ينتابها شيء من الاضطراب فتبرطع هنا وهنـــاك . فنادتها ليزو بتلك اللغة التي تخـاطب بها الحيوانات من دون أن تتدبر الكلمات والالفاظ أو تكون تعلمتها عن الغير ، لكن كما تجدها في نفسها بالبـداهة . وجارت البقرة وبرطعت متهيبة، وترددت لا تعرف وجهة تتجهها ، وقلدها سائر البقر ، فأرادت ليزو أن تقفز وراءها ، لكنها فكرت في التريث برهة وجيزة ، لانها لم تكن انتهت بعـــد من ازدراد التوت . وانها لكذلك اذا بها ترى البقر يأبق وتسمع خواره الجازع ، فهبت من قعدتها مذعورة مليئـة الفم ، وأحست كما لو كان ظل ثقيل أسود دافئ ينيخ عليها . بل لقد كان دافئا ، وكان داكنا جدا .

وجرت في الظلمة أشياء كثـيرة من دون أن تستطيع ليزو تبينها بالدقة أو ادراكها ، كذلك لم تستطع أن تقيس في أية فترات أو بأن تعاقب وقعت لها هذه الاشياء . ويجب أن نقرر أنها لم تكن مكلفة بأن تراجع نفسها كما يفعل سائر الناس . وانزلق شيء رطب عـلى وجهها وكان خشنا في ملمسه، لكنه بدا لها انها لم تكن تتوجس منه شرا . وهب عليها نفس دافئ عرفته في أفواه البقر، نفس تنبعث منه رائحة الغابة والعشب النضر . ولامستها هنـــاك أغصـــان ووخزتها أشواك ، وأحست تسلخا في اهابها وجراحا ، وشعرت بدمها يسيل وبضغط عاصر ورخاوة محسنة تخالط أعضاءها سرعان ما تتبدل في وعيها الماء وظنت برهة أنها تسمع خريرا اختلط فيها مع العطش والـــزحف على الارض والبلل واطفاء الظمأ . وكانت هناك أيضـ دمدمة ونخير وملامسات شعر مترفقة .

هذا تقريبا ما خبرته الفتاة اذ ذاك وما بقي قيد ذاكرتها فيما بعد اذا ما جاز لها أن تتكلم عن الذكريات . وكان في جملة ما وعت الذاكرة جزر وخيـــار واقراص عسل بل خبز أيضا . وكان من تصوراتها حيـــوان ارتوت من دمه الدافيء ، وتناولت لحمه النيء .

وتلاشت الآلام ، وانحسر كـــذلك الظلام ، لانه كان هناك موضع يسقط منه النور ولو بقدر ضئيل . لكنه كفى مرة لان تتبين ليزو أن بجانبهـــا ترقد كتلة مسترخية تتنفس أو تنفخ ، فلم تعجب لما تبينت بجوارها دبا ، وراقها أن تمسح بيدها على جلده ، وأن تدلكه، وأن تتحدث اليه كما تتحدث الى بقرها . وأعادت ذلك وتكرر أيضا كل ما عداه : الأكل والشرب وفراش العشب الوثير بوسائده وأغطيته ، والظلمة الغالبـة ، والضوء المتسلل ، والدمدمة، والهمهمة، والتنفس ، والدفء الطيب المنبعث من الدب كلما التصقت ليزو بجلده ودلكته وكانت تؤثر في الدعك رقبته حيث كان دغل فروته يحوي بقعة بيضاء تترسل منها خطوط صغيرة على جانبيه .

وكانت ليزو شبعانة دفيانة لا يضيرها أن تمر بها فترات وجيزة في نظرها ، يرعشها فيها البرد أو يتملكها الجوع ، فقد كان لها أن تنام على هواها ، فلا من يرميها بكلمة قاسية ، ولا بها من حاجة الى محاذرة أحد ، أو الهرب منه ، لا وعي عندها لمر الزمن ، لانها كانت تعيش في بحبوحة ، وترضى رغباتها ، وتســـد حاجاتهـــا ، كالجنين في بطن أمه .

والرغبات والحاجات كانت عندها واحدة ، فاذا ألفت نفسها وحدها عرفت أن الدب القادر سيعود اليها ومعه القوت ، ودفء الجلد والجسم ، وكل وسائل الراحة • وكانت تشكر له هذا بذلك الحب الشاكر للراحة الذى يلصق الكلب بسيده •

وقد أعيى الناس فيما بعد أن يستخلصوا من الفتاة هل الدب حال بينها وبين مبارحة المغارة بحال من الاحوال ، فدحرج على سبيل المثال حجرا سد به المدخل • وهو ما كان الناس يعلمونه من التاريخ عن انسان دب أو دببة بشرية كانت عجائز القرية تحب أن تحكى عنها الحكايات وتعيد بها ذكريات الأجداد • وكان الحديث يعرض رأيا كان أيضا رأى القسيس هو أن الأمر فى اقامة الفتاة لا يتعلق بمغارة دب حقيقية بل قد يكون مخبأ من المخابىء التى كان يعتصم بها القرويون أو الفارون فى الغابات أثناء الحرب الطويلة الأمد ، أو لعله وهدة من تلك الوهاد الصخرية التى ينبع فيها الماء اتخذت ملجأ ثم هجرت فيما بعد • بل لعله كان لهذا المخبأ باب فى الارض ينطبق اذا مس الدب عند مغادرته مغارته بوزنه الثقيل موضعا بعينه وهو لا يعلم هذا ما رأى الناس ، ذلك أنه كان يبدو لهم مما لا يقبل التصديق أن تقيم الفتاة ليزو عند الدب بمحض ارادتها • كذلك خطر لهم أن الفتاة تكون قد وقعت على بعض القوت المخبأ المنسى كجبن الضأن واللحم المملح الملفوف فى نسيج الكتان المدهون بالقار حفظا له من الدود وصونا من الفساد • ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يحمل الدب الى الفتاة الزاد كما تحمل أمهات الحيوان الى صغارها القوت ، غير أن أحد القرويين واسمه أولو ، ذكر القوم بالدب الذى جاء الى القرن فى الغسق ورمى النساء برعب عظيم • وكان أولو يملك بندقية ـ اذ قيل انه ذبح مرة جديا هاربا من حملة البنادق ـ فأطلقها على الدب الذى خلف وراءه أثرا من دمه فوق الكلأ •

وذات مرة ، وقد عاد الدب يهر ويئن ، لحظت ليزو أن بكتفه بللا من سائل دفىء ، لكنها فى نفس الوقت وجدت رغيفا ملقى على الارض كان أيضا ساخنا فلعقت ليزو السائل الدافىء من جلده ، وقضمت فى خلال ذلك فى الرغيف الساخن • ولما كان السائل لا ينقطع ، والدب يئن أنينا متواصلا مزقت ليزو قطعة من أثمالها وضمدت جراح الدب عند الكتف • وقد يكون خبز القرية الساخن ذكرها بجرح رأته يضمد فى القرية • ولبث الدب فى المغارة فترة أطول مما اعتاد ، فلما خرج أخيرا ثم عاد كانت الضمادة قد زالت عن كتفه أثناء عودته • بيد أن الجرح كف عن النزيف •

وبدا ذات مرة للفتاة كأن غيبة الدب قد طالت أكثر من المألوف ، وقاست ذلك باشتداد وطأة الجوع عليها ، بعد أن استهلكت كل ما كان لديها من القوت • واشتدت المسغبة ، وساورها فى نفس الوقت خوف بهيم من أى شىء يمكن أن يغير نظام الاشياء • وبلغ منها أن خيلت اليها قلة الحيلة ، وخيل اليها الضيق ، أنها ترى فى الغاب عش الغراب والتوت ، بل أيضا ضيعة قصير الرجل بأرغفتها المعهودة •

وبغتة تعرضت الفتاة لضوء أليم • ذلك أن الشمس طلعت فى الخارج ناقذة من خلال شجر السندر وأغصانه الجرداء

التي تقطر بالماء ، والتمع الثلج الذائب حتى اضطرها الى أن تغمض عينيها ،لكنها أحست في نفس الوقت أن ساقيها تخذلانها ، فجعلت تجر نفسها خلال الغابة العديمة القوت ، من جذع الى جذع ، وقد دميت قدماها والم بهاعذاب شديد ، وجاءت الىالمستنقع وكانيتعذر عليها اجتيازه ، وكانت قطع الجليد تتكسر تحت وطئها ، وماء الثلج يغرغر، ودجاج الغابة العابريصيح • وفيما خلا ذلك كان كل شيء هادئا ، فكان في وسعها أن تصرخ وتصيح ما شاء لها الصياح •

والتمست العودة فعزتعليها العودة، وأقبل الغسق ، وهبط الظلام ، فقبعت عند كتلة من الحجر في هدأة الريح ، وانتزعت منالارضالزلقة عشبا لتدفيء قدميها ودلكت اطرافها بالثلج لتقاوم التجمد • وتقضىالليل في هذا البؤس، لكنها في الصباح الباكر سمعت دق أجراس فتعجبت كثيرا ثم لم تلبث أن تبينت قرع أجراس كنيسة القرية ، فنهضت وأرادتالمسير على هدىالصوت لكنه لما كانت قواها قد خارت ، وكان عليها أن تدور من طرق أخرى حولمياه الربيع الذائبة وماء المستنقع،احتاجت الى وقت طويل مضن للخروج منالغابة وبلوغ الكنيسة • وكان الخان قبالة الكنيسة فكانت مركبات القرويينواقفة صفا طويلا ، مشدودة الىمربط العربات، فتبينت حصان آل قصير الرجل ــ ذلك الحصان الهرم ، فامتطته وتسللت الى دريس العربة وغابت فيه عن الرشد •

واستيقظت على هز وصراخ ، فرأت وجوها تحملق فيها وكانت أكثر من أن تحصى • وكانت ماريت أيضا بينهم فذكرها مرآها بمنكاش النار • لكنها ألمت بصوت مرتفع عميق حسر له الناس رؤوسهم ، ثم لم تسمع الفتاة بعد ذلك ولم تر شيئا أمدا طويلا • وتذكر القسيس الطفلة اليتيمة فآله انه لم يهتم بليزو في السنوات الماضية • لكنه كيف كان يسعه الاهتمام بها ؟ فقدكان شيخا، وكان زملاؤه في هالنبرج قد شنقهم القوزاق ، ورئيس دير مانذا قد أخذه جنرال رهينة ، ولم يعد أحد يسمع به• فكان لزاما على القسيس أن يؤدي عنهم واجباتهم ، ويقطع في سبيل ذلك أميالا مريعة لا تعد •

وادخل القسيس آلان ليزو الى داره ، ومددها على زكيبة من القش ، وأحكم فوقها الغطاء ، ثم جعل زوجته بعد ذلك تغسلها وتغلي لها ما تشربه • ودهنت امرأة القسيس قدميها بمرهم وربطتهما• وكان عليها اطعامها ، لكنها أطعمتها كما تطعم طفلا صغيرا لانها لم يكن لديها في أول الامر مطهى تحتفظ به ، وخشيت زوجة القسيس أن تموت الفتاةكمايموت أرنب صغير •

واستردت ليزو مع الوقت قواها ، وجعلت تأكل كما يأكل سائر البشر ، وارتدت من الثياب ما يرتدي هؤلاء ، وجعلت تجيب على ما تسأل كما يجيب سائر الناس ، وتعلمت أنتسمي الاشياء باسمائها وكانت تجهل ذلك من قبل • وقال الناس انه قد هبطت عليها السعادة من السماء ، وانها انتقلت من مغارة الدب الى دار القسيس ، وان القسيس سيعنى بأن تتزوج في حينه من رجل صالح ويساعد على جهازها ، وكان آخرون لا يصدقون الفتاة ويزعمون أنها لحقت ببعض النور أو اختلطت ببعض

الجنود العائدين فى الارض فسادا. لكن الجميع كانوا يلاحقونها بالسؤال،وكان الاطفال يصيحون وراءها : عروس الدب! عروس الدب !

***

وفي أواخر الخريف ذات مساء خرجت ليزو من حظيرة الماشية وأرادت أن تحمل ماء من بئر الفناء . وكان سيد القرية المحترم قد جاء راكبا يرتدى سترة الصيد المرقعة ، فرأته يخرج من باب البيت مع القسيس فى الضوء الخابى فناداها القسيس وكلفها بأن تقص على السيد المحترم ماكان من مقامها فى مغارة الدب . وكان السيد أثناء ذلك يهز رأسه ويضحك وكأنه يهر ويقول : «كذا، كذا . » أو « من يعلم ! » ثم ناول القسيس فى الختام قطعة نحاسية من النقود على أن يدخرها للفتاة . وعلى كل فهو ـ على حد قوله ـ لم يسمع بأن دبا فى ذلك الحين رمى فى أرضه بالرصاص، لانه ـ كما قال ـ كان ما يزال فى الفاحية جنود جوابون يحملون البنادق، ولا يحفلون بحق الصيد ، فليس من سبيل الى التحرى الدقيق ، ثم أشار الى نجم فى السماء الداكنة الزرقة فوق سطح آل كليتون بالذات يضحك فى سخرية : « هذا هو الدب الاكبر ، انظرى اليه ! فلعلك نزلت عليه ضيفة ، فاذا كبرت بما فيه الكفاية فقد تستطيعين أن تدلكى له زوره ! »

ولم تفهم ليزو ما يقول ، وانحرف السيد المحترم راكبا يتبعه القسيس بنظرة وقال لليزو : « ليصادف الانسان دبة ثكول ولا جاعل فى حماقته » كما جاء فى «امثال» التوراة فى الاصحاح السابع عشر ـ الآية الثانية عشرة . وحين تأتين للتثبيت فسوف ازودك بهذا المثل » .

وجعل القسيس يعلم الفتاة الدين . فسمعت منه عن كريم قادر وعن واهب للدف، والقوت عليها أن تحمده،وتتفانى فى خدمته ، فكان يخيل اليها أحيانا أن القسيس يعنى بذلك نفسه ويعنى امرأته القصيرة الضامرة . وأحيانا يبدو لها أنه يعنى به شخصا آخر لا تعرفه . وهكذا انتهت الى أن تقصر تفكيرها على الدب الذى منحها كل شىء ولم يتقاضاها فى مقابله عملا ما ، على أنها كان لابد أن تخرج الى الفناء وترعى أيضا بقرات القسيس وكانت ستا . لكنه يقال انها كانت قبل الحرب اربعا وثمانين ، وهنا استعادت كل الالفاظ التى كانت تخاطب بها الدب وزادت عليها مجموعة من عبارات الرجاء علمها القسيس اياها . ومع ذلك لم يشأ الدب أن يعود . ومهما يكن من تلقاء أو تقابله فانه كان يذكرها بأسئلته ومباسطاته بالدب . كان يورى القصير الرجل يقول لها : « طاب يومك ياعروس الدب الصغيرة . أبلغى عريسك عنى السلام ! » وكانت ماريت قصيرة الرجل تقول لها وهى تصيح وراءها : أتراك ذاهبة عما قريب الى مغارة الدب تتسكعين عنده ؟ » وليس شك فى أن ماريت لم تعد تجرؤ أن تمس الفتاة منذ أقامت فى بيت القسيس . واذا حل بالقسيس ضيف دعيت ليزو الى الحجرة الكبيرة ليسألها الضيف وتجيب . وهنا كانت تقف بالباب فتؤمر بصرامة أن تقترب وتفتح فاها . لكنه ما الذى كان ينبغى أن تقول . لقد طالما أبدأت وأعادت ، حتى لقد بدا لها أنها تصبح بكل كلمة تلفظها أكثر رداءة مما كانت وأبعد عن

الصدق مما هي سواء ضحك السامعون غير مصدقين أو قال صياد هرم من صيادي الدببة : ان مثل هذا يقع لكنه نادر الوقوع وقد كان يدخل في روع ليزا انها كانت تعيش في حال لا خير فيها بل الشر والا لما أمكن أن يبدو لها عهد الدب السعيد رديئا لا يقبل التصديق . وكانت في ذلك أيضا أسئلة كثيرة لم تدركها فامسكت من ثم عن الكلام وكان أن لحظت ان سامعيها غير راضين .

وفي العام الثاني لاقامتها عند القسيس جاء سيد غريب فأمرت ليزو أن تغسل له يديه ورجليه ثم كلفت بعد ذلك أن تتوجه الى الحجرة الكبرى ليروها ويسألوها . ثم تحدث القسيس وضيفه باللغة الالمانية فلاحظت ان الحديث يدور حولها فألمها ذلك وأحست ضيقا لا يحتمل . فلما عادت الى الفناء كان سائس عربة الغريب يقف مع الخيل ، رجلا أشيب الشعر ، يدخن غليونا ، فكان لابد أن تجيبه هو الآخر عن أسئلته فجعل يسمع لها من دون اكتراث ، ثم بصق على الارض وقال :

« لقد قابلنا أمس نحن أيضا دبا أنا وسيدي . كان هذا في بركنكروج فمر بعض النور يقودون دبا من سلسلة الى سوق شفارتسنبرج السنوية . وكان دبا هائلا قالوا انهم لقوا عناء كبيرا في ترويضه لانه كان قد تجاوز السن . وكانت على كتفه ندبة جرح وفي رقبته بقعة بيضاء ، وليس هذا بشائع بين الدببة » .

فسألت ليزو : « وأين تقع شفارتسنبرج ؟ »

قال السائس : « هناك . سيري راسا ثم عرجي عن يمين فاسرهون والطريق من هناك مطروق » .

ولما خرجت ليزو من دف، الحظيرة التي ينتشر فيها البخار الى الفناء كانت صور النجوم في فصل الخريف تعلو الدور القائمة هائلة تتلألأ ، وكان لكلب الضيعة شخير وهو شبه نائم ، فأرعشها البرد ، وضمت الى صدرها بعض رغيف صرته في قطعة من القماش كانما أملت أن تدفئها . ورفعت بصرها فرأت فوق شجر التفاح في الحديقة لمعان نجم الدب ثابتا لا يتحرك فتطلعت اليه دهشة ، وخطر لها ما تفوه به السيد المحترم من تلك الكلمات وما أدلى به القسيس عن المسيحية من أقوال وما وعظ به يوم الاحد عن السماء .

فلما عرجت عند فاسرهوف تذكرت «أولو» فغضبت اذ اعتاد أن يقول لها وهو يطرف بعينيه : « أجل لقد كويت جلد حبيبك كيسة صميمة » . وعند طلوع الشمس فرت بين المراعي وجعلت تتناول من خبزها ، وجاءت مركبة تستقلها قروية عجوز قاسية الملامح ولما كانت من قرية غريبة فقد سألت ليزو ان كانت تريد أن تصحبها فلما انقضت ساعة على ركوبها قالت العجوز : « من لم يتعلم بعد أن يفتح فمه حين يسأل فليسر على قدميه اهبطي أيتها الطفلة ! »

وفي المساء بلغت ليزو بركنكروج ، وتسللت الى الضيعة ، وكان في فنائها مركبة محلولة مما يستقل السادة ، فقضت الليل بداخلها ، وحلمت بالدف، الذي كان يواتيها من الجسم القوي وعند العصر وصلت الى شفارتسنبرج فداخلها خوف كثير من أن تلقى أحدا من أهل

قريتها . وقد رأت يورى قصيرالرجل. لكن هـذا كان يرقد تحت مركبته ويستهلك نشوته نوما . وكان فى الخان ضجيج وعزف ، وعلى أخونة البيعأشياء طيبة زاهية لم تلتفت اليها ليزو وكان امام الكنيسة طبل يقرع ، والنـاس يتحدثون عن النور وعن الدب . فجرت ليزو الى هناك تحدوها تلك الثقة وذلك التأكد الكامل الذى كانت تنتظر فيه عودة الدب فى حياتها السـابقة وهى شبه نائمة . وشقت طريقها بين الناس فاذا رجل رث الملابسأسود الشعر يقرع الطبل ويصفر أيضـا . وخرج آخر من خلف المركبة يحمل سـوطا فى يده اليسرى ويسحب باليمنى سلسـلة ، فوقف وشد السلسلة وطرقع بالسوط، فعلا من زاوية المركبة نفخ أنفاس دفىء لها قلب ليزو . وعاد النـورى يطرقع بالسوط ، ويجذب السلسلة . وهنـا جعل الدب يخب الىالدائرة ويطأ برجليه وطئا باطشا ، فوكزه الرجل فى جنبه فشب كارها ، وبرطم ، وجعـل يدور كئيبا ، بليدا ، لا يحسن أداء ، وضحك الواقفون . ولم تكن ليزو قد رأت قبل الآن دبا أسيرا مهانا ، لـكنها لم تفكر الا فى أنه حسبها أن تجد فينتقل بسحر ساحر الى أرض الدببـة حيث الرخاء ورغد العيش وكل كفاء . وحملقت فى الدب الغليظ والكمامة على فمه ، والندبة فى كتفه ، والسلسلة الثقيلة فى طوقه، وقدكسا الطوق بعض تلكالبقعة البيضاء فنادته بتلك الالفاظ القـديمة مبهورة الانفاس ، فأخذالدب يستدير ببطء ذات اليمين وذات الشمال يتخطى بعينيـه الكدرتين هذا الغفير من النـاس الذين يرمونه بالخوف .

ودفع ليزو فى جنبها رجل هرم قال لها : « هل احتسيت خمرا أيتها الفتاة الحمقاء ! »

وعوى فىنفس الوقت من بعيد صوت جرو الذئب من ماريت الغاضبة قصـيرة الرجل وهى تقول : « هيه ، يا عروس الدب ! انتظرى فقط ، فساعيـدك الى القسيس ! »

وسرت فى النظارة حركة ، وسـكت الطبل ، والتفت الـكثيرون الى ليزو ، وكف الدب عن التحرك ، وبدا كما لـو كان يبغى الاستلقاء . لكنه حدجمروضه بنظرة مرتاعة كأنما يريد أن يستوثق من أن هذا لا يجر عليه عقابا . وأخـيرا استسلم للقياد وهو متثاقل .

وصرخت ليزو صرخة عاتية ، ووثبت الى رقبته ، وضغطت رأسـها على فروته الدافئة ومدت يدها الى اليقعة البيضـاء فى رقبته ، فاختلج الدب اختلاجة عبر بها عن غضبه وذعره ورغبته فى دفعها عن نفسه معا . ثم دمدم دمدمة حانقة ولطم ليزو بمخلبه الايسر على ظهرها ، وهوى فى نفس اللحظة تقريبا بالأيمن على طاسة دماغها ، فزمجـر القرويون ورفعوا الهراوات والفؤوس والمنـاجل المشتراة حديثا ،ودوتصرخات النوريات واطلقت رصاصات . ولم يستغرق هذا سوى ثوان ، ثم ارتمت الكتلة السوداء السمراء بلا حراككأنها فروة دبمتجمدة